الأمثال: من الفحص إلى المساءلة

جورج ناصيف

الكلام على سلام الراسي، جمّاعة وراوية للمأثور الشعبي، يستدعي فوراً، ومن غير ثُقلة، الكلام على المرويات والأمثال والقصص التي انسلخ إلى جمعها «لئلا تضيع».

فالراسي يغيب، كمنشىء وحافظ، خلف المحفوظ الذي دوّنه في اللوح، كأنه عثمان الذي خشي على الكتاب أن يتبدد في الصدور والسطور، فقام إلى الجمع، لا يضيف ولا ينسخ، بل يتقصد التحقق ويأتي بالبينة.

ليس من يجادل في أن المثل، والقولة لمارون عبود، هو «أدب الشعب وعنوان ثقافته، والدليل على عقلية الأمة وأخلاقها الأولية ونتيجة اختباراتها في الحياة»[1].

بصفته تلك، ولأنه في عين العوام حمّال للخبرات والتجارب جميعها، مُنطوٍ على الحقائق الراسخات، آتٍ من القديم والمجرّب والمجلوّ، غير محتمل للحيوان أو النقيصة، فقد اكتسى عند العامة، كما لاحظ الراسي، «قوة توازي أحياناً أقوال الأنبياء والفلاسفة وعظماء الرجال»، وبات غير قابل للجدال أو المجادلة، يتقدم الكلام مفتتحاً إياه ليغلق باب الترسّل أو الاجتهاد أو الرأي قبل طرقه، أو ممسكاً سيلانه عندما يحسبه القائل مصبّاً أخيراً. فإذا أرسله المتحدث شاءه، حسب وصف الراسي، «حجَراً أخيراً في بنيان الحديث، فصلاً للخطاب، بواسطته يغلق مدماك الكلام». (حكي سرايا وحكي قرايا).

وليست المسألة مسألة موضع فقط. بل يتصل الأمر بوظيفة المثال، على لغة أهل الاجتماع. فهو من هذا القبيل، ينتمي إلى المؤسّسي، الموروث، التاريخ. وبمضمونه يرمي إلى الآنية والحضور. كما يرمي إلى كشف المستقبل، ولكن بما هو تكرار لحاضر ـ ماض»[2] لحاضر ما يمكن إلا أن يحاكي الماضي ويترسمه، باعتبار أن القديم خير من المحدث، وليس من مستغلق إلاّ كشفه السالف حتى أبانه إبانة يقصر عنها اللاّحقون.

وإذا كان صحيحاً أن خلف الأمثال منظومة معارف، وجهازاً من القيم الاجتماعية، إلا أن هذه المعارف ليست متساوقة، منسجمة في نسيجها الداخلي، وليست القيم مما يمكن نسبتها إلى الثبات والتماسك والبنيان المنطقي. فقد درج كثرة من جمّاعة الأمثال، ومن الباحثين، على فحص هذه الأمثال لاستنطاق القيم التي تستبطنها، ولرسم شخصية نمطية للريفي أو للبناني من خلالها، كمثل ما فعل أنيس فريحة في حديثه عن «عقلية اللبناني كما تتراءى من فلكلوره»[3].

والحق أنه يجدر التلفّت إلى ما نبّهنا إليه د. حليم بركات في سفره الثريّ «المجتمع العربي المعاصر» من «خطورة استصدار قيم ثابتة من الأمثال. الأمثال تقال في مناسبات محدّدة للتدليل على فكرة أو ظاهرة، وفي سبيل البلاغة والاقتضاب. وهي عادة جمل تقترح مسلكاً ما في بعض

الحالات أو تصدر حكماً عابراً، أو تصف حقيقة ما، أو تسخر من سلوك أو شخص معين. وبسبب اتصالها الوثيق بالمناسبات تقال في بعض الظروف، وقد تفسر تفسيرات مختلفة، وقد يكون لها مدلولات متنوعة. وقد تتناقض مع أمثلة أخرى»[٤].

ولعل هذا التناقض بالذات هو ما يستوجب أن نجلوه بشيء من التفصيل، حتى يستوي المثل في موقعه الصحيح، من حيث الدلالات وما يومىء إليه.

فإذا كانت بعض الأمثال تؤكد على العصبية العائلية، وتحضّ على التماسك الأسرويّ والقبلي كالقول (أنا وخي عا ابن عمي وأنا وابن عمي عا الغريب، اللي في نقطة من دمك ما بيخلي من همك، أهلك ولو رموك بالمهلك، ما بيحمل همك إلا يللي من دمك) إلا أن ثمة أمثالاً أخرى تحض على عكسها، حيث تذم الأقارب ومن يتصّل بنسب الدم (الأقارب عقارب، عداوة الأقارب أوجع من لسع العقارب، البغض بين القرايب والحسد بين الجيران، الجار قبل الدار، أهلك اللي اشتروك ولا أهلك اللي باعوك...).

وفي شؤون النظر إلى الحياة، نزولاً عند قضائها وقدرها، أو حثاً على الجهاد والمغالبة وتوكيداً للاختيار الحر، نجد التناقض عينه.

فالأمثال القدرية وفيرة: الإنسان في التفكير والله في التدبير، لا تفكّر، لها مدبر، الحذر ما بيمنع القدر، المكتوب ما منو مهرب، إذا وقع القدر عمي البصر، قول الله وامشي عا وجه الماء، ابن تسعة ما بيموت ابن عشرة، اللي إلو مدة ما بتقتلو شدة، العنده علة بالبدن ما بشيلا إلا الكفن، كل شيء قسمة ونصيب، كل واحد رزقتو بتوصلوه، المنحوس ولو حطّلوا فانوس...

والأمثال التي تذهب في اتجاه مناقض، لا تشكو من وفرة: العيشة تدبير، اعقل وتوكل، إن نام الدهر لا تنم له، اللي ما بيحسب لقدام بيوقع، اللي ساق نفسه للردى لآ يلومها.

وثمة أمثال تسخر من القدر صراحة: اقعد على وكر الدبابير وقول هيدي تقادير، إن أقبلت من الله وإن أمحلت من الناطور.

والموقف من المال والثروة متناقض، بدوره. فمن الأمثال ما ينسب الكرامة إلى الثروة فيقيس بها الرجال، ومنها ما يسقط المال كمعيار.

في السلوك الاجتماعي تحتشد أمثال تزين الفردية والانتهازية والتملق والتقلب وإيثار السلامة: الشاطر بشطارته، حسب السوق سوق، الناس مع الواقف، الهربة ثلثين المراجل، فخار يكسّر بعضو، العين ما بتقاوم مخرز، هالخد عاللطمة، بوس الأيادي ضحك عاللحى، بوس الكلب من تمو وخذ اللي بدك منو، الإيد اللي ما بتقدر عليها بوسها وادع عليها بالكسر، ألف كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمو، العب وحدك بترجع راضي اللي بياخذ أمي بعيطه يا عمي، ألف قلبة ولا غلبة، البعد عن الناس غنيمة.

وتحتشد مثلها أمثال تكرم التضامن الاجتماعي، والتآزر بين الناس، وترى باكبار الى الثبات على الموقف: الناس للناس، عشرة الإخوان تنسي الأحزان، ألف صاحب ولا عدو، الجنة بلا ناس ما بتنداس، كثرة الأيادي بالحصيدة غنيمة.

حتى المرأة التي تُرمى، في الغالب من الأمثال، بكل مظنّة سوء، وتُنعت بما نفر من الكِلَم وغلظ على السمع، لا تفتقد أمثالاً ترفعها في الكرامة.

فمن أمثال التحقير: المر مرارة يا غشيمة يا قهّارة، المرأة تنكة ولو صارت ملكة، البيت اللي ربو مرا كل ما لو لورا، المرأة مثل الزيتون ما بتحلا إلا بالرص، بنت الدار عورا، البنت يا زيجتها يا جنازتها، البنت مشمشة كل الناس بتهزا، مسمار بالحيط ولا مرا بالبيت، من طاوع الإناث دفع الطاق طاقين وثلاث.

ومن الأمثال التي ترى إلى المرأة كائناً سوياً، بل تُعزّها على الذكر والعقب: البنت المليحة ولا الصبي الفضيحة، المرأة المصاقبة خير من العاقبة.

ولا يسلم الدين، في عباداته وشعائره، من أمثال تتناقض حياله. فإذا كان «اللي ما عندو دين خاف منو، وكل من على دينه فتاش»، فهناك أيضاً دعوة إلى عدم المغالاة في التدين كقولهم «صم وصل بتركبك القلة»، بل تبرير للتجديف يصاغ صراحة: «سب الدين الله بعين»، و «كل شي بوقته منيح، حتى مسبة الدين بوقتها تسبيح».

من هذا الطواف اليسير في عالم الأمثال، نستوثق مما انتهى إليه جازماً د. بركات حين أكد أن في الأمثال «صراعاً بين قيم القدرية وقيم الإرادة الحرة، بين القيم السلفية والقيم المستقبلية، بين قيم الإبداع وقيم الأتباع، بين قيم القلب

وقيم العقل، بين القيم الجمعية والقيم الفردية، بين قيم الانغلاق وقيم الانفتاح، بين قيم الطاعة وقيم التمرد»[٥].

ولكن، على خلوصنا لهذا الرأي، وميلنا إلى قراءة الأمثال في تناقضها كتعبير عن تناقض الحياة نفسها، وانطوائها على أكثر من جانب ووجه، وعصيانها على الانحباس في قالب من كلمات يسيرة، إلا إننا لسنا نسقط أن ثمة قيماً ترقى إلى ما يشبه الثوابت، فلا تجد مثلاً يطعن بها، أو قولاً سائراً يجري عليها مراجعة، كمثل الحض على العمل، تبريكاً له واقبالاً عليه (الله مبارك بالشغل، الشغل عبادة ثانية، الحركة بركة) واعلاء مقام كبير السن اعتباراً لحكمته (اللي ما عندو كبير يشتري له كبير، أكبر منك بيوم أفهم منك بسنة) واعتزازا بالأرض وحرثها (قفة شلوش ولا قفة شروش، إن جار عليك الزمان جور عا الأرض) وافتخاراً باقتناء البيت (البيت سترة، البيت عز، البيت أول مقتنى وآخر مبيع) ونفرة من الحكم والحكام والسياسة، وما إليه من رواسخ في العقل الجمعي الذي تفصح عنه الأمثال.

حتى الساعة، كنا ما زلنا تحت خباء الأمثال. نقربها، نجسّمها، ونطوف حول كعبتها.

لذا، حان وقت الخروج من صحن الدار إلى فنائه، من تفحّص الأمثال إلى مساءلتها طلباً للتعرف على مدى لبوثها حاضرة، راعشة، وقائلة الحياة، أو انقطاعها عن دورة الأرض والمعاش وارتدادها إلى متحف الكلمات الباردة.

ولنا، هنا، أسئلة:

- إذا كانت الدراسات الفلكلورية الغالبة قد تناولت فلكلور سكان لبنان القديم، من الدروز والنصارى، كما أقر بذلك أنيس فريحة، قائلاً: «إن المسلمين يختلفون فلكلورياً عن سكان لبنان القديم اختلافاً بيّناً، فالمسلمون لم يسكنوا القرى، وليس في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ما يشبه الحياة القروية»[٦]، فهل يصح في الأمثال تخصيصا ما يصح في الفولكلور تعميما؟ هل الأمثال المتداولة متداولة بالكثافة نفسها في أطراف لبنان وملحقاته خارج جبل لبنان؟

- إن المثل يطلع من نظام اقتصادي - سياسي محدد السمات حيث لكل نظام منظومة معارفه الاجتماعي. والمثل اللبناني وليد الريف. وليد القرية المغلقة، المتراصة، حيث يعلى الأرض والزرع والذكورة. وهذه القرية تبدلت. دخلتها المدرسة والنادي والصحيفة والأحزاب والإذاعات والحرب والآلات والاختلاط والدولار. فهل ما زالت الأمثال تحمل روح هذه القرية، وتشيعها، أم بات الانقطاع بين قرية اليوم والأمثال أكثر سفوراً من أن يحتمي خلف الكلمات؟

- لقد قالت الأمثال قيماً معينة. جلّها متبدل ومتناقض وقليلها ثابت وذو رسوخ، ولكن هل بقي سلم القيم هو نفسه السائد في الوسط الشعبي، حاضراً، وبين شبيهته، على التخصيص؟ هل هناك، ونستعير صيغة د. خليل أحمد خليل، «تمثّل اجتماعي للمثل» في السلوك والمسلك، أم صار المثل زينة الكلام، بُردته وحِليته؟ هل خرج من الحياة ليستقرّ في اللغة وحدها؟

ما نملكه هو الأسئلة، فالإجابات ليست مما تطاله أيدينا.

هل تراني حكيت في الأمثال، ولم أحكِ في سلام الراسي وهو من التقيد على اسمه؟

لا أحسبني شططت. فالراسي يُقصد في هذه البئر، أو لا يُعثر له على خطو.

مراجع

(١) مارون عبود - الشعر العامي. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٠.

(٢) د. خليل أحمد خليل - نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية. دار الحداثة بيروت ١٩٧٩ - ص ٧٤.

(٣) أنيس فريحة - القرية اللبنانية. حضارة على طريق الزوال. دار النهار للنشر بيروت. ط ٢ ١٩٨٠ ص ٣٥٥ وما يليها حتى ٣٦١.

(٤) د. حليم بركات - المجتمع العربي المعاصر. بحث استطلاعي اجتماعي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٨٥ - ص ٣٣١.

(٥) المرجع السابق. ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٦) أنيس فريحة. مرجع مذكور. ص هـ.